

كلمة حق عند سلطان جائر!

بقلم: خليفة بن عربي

اهتزت دمشق حينما دخلها عبدالله
ابن علي عم الخليفة العباسي أبي
جعفر المنصور، ليجلي بني أمية عنها،
جنود في كل مكان، رقاب تقطع،
وبيوت تهدم، رجال يساقون إلى
الساحات العامة زرافات ووحداً
ليلقوا مصيرهم المحتوم، لم يرحموا
شيخاً ضعيفاً ولا طفلاً رضيعاً، الدماء
تسيل في المدينة كالأنهار، والصراخ
في كل مكان، هلع وخوف ورعب،
وكأنه يوم القيامة.

برز والي العباسي عبدالله بن
علي وحوله حاشيته وجنوده وهو
يشق طريقه غير مهتم أو مكترث لتلك
التأوهات والصرخات من حوله، حتى
اقترب من المسجد الكبير، ودخله
بجنده وأعلى المنبر، وشموخ العظمة
يغلي بين جنبيه، ثم صرخ قائلاً:
هل من معارض؟

فلم يجد جواباً. الانكسار والوجوم
يطغى على الجميع، ونظرات والي
الثاقبة تجول على الوجوه، فما تقع
علي عين شخص إلا وألزمته الصمت
والذل، ثم كرر سؤاله بشدة:
من يعارض ما نفعل؟

لا جواب، الخوف قد ألجم أفواه
القوم، وألجم نخوتهم وشجاعتهم، من
ذا الذي يحاول أن ينبس بكلمة أمام
ذلك الجبار، فمن تجرأ على ذلك لن

• أدرك الرباوي قيمة التواصل مع القارئ وجسد ذلك في شعره • عندما يخرج الشاعر من مراحل التوثيق والزخرفة إلى التداخل والالتحام!

والحنين إلى الزمان الجديد إنما هي
من اختصاص هذا الأخير.

الهوامش:

(١) تكريم النبوة في شعر القاضي عياض /
د. حسن جلاب / الموقف / ع ٩ / ص
٥٣، ٥٢.

(٢) البيعة المشتعلة / محمد علي الرباوي /
المقدمة بقلم علي لغزيوي / ص: ز.

(٣) الأحباب الفوارة / محمد علي الرباوي /
منشورات المشكاة / وجدة / المغرب.

(٤) الأنبياء / ٦٩.

(٥) الأحباب الفوارة / ص ٣٦.

(٦) آل عمران / ٤١.

(٧) الولد المر / محمد علي الرباوي / ط ١ /
المطبعة المركزية / وجدة / المغرب /
١٩٨٩م.

(٨) ديوان عنتره / دار صادر / بيروت / د.ت.

(٩) الولد المر / ص ١٩.

(١٠) الأعشاب البرية / محمد علي الرباوي /
ط ١ / ١٩٨٥ / دار النشر.

(١١) الولد المر / ص ٣٥.

(١٢) انظر: السيرة النبوية / ابن هشام /
تحقيق مصطفى السقا وآخرين / دار
القلم / بيروت / لبنان.

(١٣) الولد المر / ص ٢٧.

(١٤) الأغاني / الأصفهاني / ج ٢٣ / دار
الثقافة / بيروت / ص ٢٦٠.

(١٥) الرمانة الحجرية / محمد علي الرباوي /
ط ١ / المطبعة المركزية / وجدة /
١٩٨٨م.

(١٦) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري /
الحسن بن بشر الأمدي / تحقيق أحمد
صقر / دار المعارف / القاهرة /
١٩٦١م / ص ٢٩٧.

الطحالب.. الطلل.. التسكع.. الجثة..
شوارع الذات.. الجسد الممزق..
الجنس القارس.. السعار..
الصلصال.. الجحيم..».

وهذا التشكل يجعلنا نؤكد أخيراً أن
الشاعر المغربي محمد علي الرباوي
مبدع متميز في عالم القصيدة
الإسلامية، حيث تتحول اللغة عنده إلى
اكتشاف فني رائع يتسع للتعبير عن
مشاعر وأحاسيس راقية.

ب - لغة الشوق أو البناء الواعي:
إن اللغة في هذه الحالة تتحرك في
سياق إيماني خاص أساسه الانعتاق
من عالم الجسد المرعب والدخول في
عالم الفرح المشتعل، أو الساحل
الأخضر كما ينعته الرباوي نفسه،
وفي هذا السياق نقرأ ألفاظاً «كالشوق،
والنور، والحب، والحنين، والسلام،
والأخضر».

وإذا كانت لغة الشوق دالة على
عالم الغد الذي فرض نفسه بوصفه
بديلاً يقدمه الرباوي، فإننا نؤكد من
جهة أخرى: أن هذه اللغة إنما تمثل
حيزاً صغيراً إذا ما وازناها بلغة الطين
والجسد، حيث صارت الخاصية
الكبرى التي لا تفارق قصائد هذا
الشاعر، ومعنى هذا أن الرباوي مازال
يكابد ويعاني في ظل واقع مادي
يرهقه كثيراً، وأنه يحاول التخلص منه
لكن بعناء، ولو جاز لنا أن نوازن بينه
وبين الشاعر المغربي حسن الأمrani
في هذا المجال لقلنا: إن لغة الشوق

يلبث إلا وتتفصل رأسه عن بدنه،
ضرب عبدالله بن علي بقبضته
الخشنة على المنبر فاهتز المنبر،
وكأنه يؤكد سيطرته على كل شيء..
وللمرة الثالثة سأل:

هل من معارض؟!

وتستمر رياح الصمت في الهبوب،
ويطأطي الجميع رؤوسهم، وفجأة
يقطع ذلك الدهر الثقيل من الهدوء
صوت ضئيل لا يعرف له مصدر:

إذا كان هناك معارض فإنه الإمام
الأوزاعي.

استوقفت هذه العبارة عبدالله بن
علي، أ يكون هناك فعلاً من يعارض
فعله؟ ما عاش ولا كان، لم يثر ذلك
الرجل الذي تجرأ على الكلام، إنما
أثاره ذلك الأوزاعي الذي قد يتجرأ
على معارضته، فقال بصوت يملؤه
الغضب:

فلتحضروا لي الأوزاعي!!

اضطرب الناس، واعتملت في
رؤوسهم فكرة قاسية، إنها فكرة
فقدان الإمام الأوزاعي، ذلك الرجل
الورع الزاهد الذي لم يعرف تقي ولا
زاهد مثله، الإمام الأوزاعي الرجل
العالم العابد القائم الصائم الذي يحبه
كل الناس، والذي ينهل منه الناس
شتى أصناف العلوم والمعارف، ذلك
الإنسان الرباني الذي ما شوهد يوماً
إلا عابداً مصلحاً خاشعاً لله تعالى:
الإمام الأوزاعي سيقف أمام عبدالله بن
علي ويعارضه؟! حتماً فإن الموت
مصيره.

وجاء الإمام الأوزاعي رسولاً من
عند الوالي، استأذن الرسول ودخل
عليه، فوجد رجلاً منير الوجه، باهي
الطلعة، عظيم الهيبة، صورته تبعث
الخشوع والإجلال والرّهبة، شفتاه
تنبسان بذكر الله تعالى وتسبيحه.

لم يكثرث الإمام الأوزاعي
للسلطان، انتصب الرسول أمام الإمام
وقال له:

إن الوالي عبدالله بن علي يطلبك.

عندها توقف الإمام الأوزاعي عن
التسبيح بلسانه، وقلبه يخفق بذكر الله
تعالى، وقال: ما لي وعبدالله بن علي؟
لم يزد الرسول على ما قال، ثم
انصرف، وعلم الإمام الأوزاعي مدى
المسؤولية التي أقيت على عاتقه، ثم
تمتم:

- الله المستعان!!

لم يكن الإمام الأوزاعي خائفاً من
ملاقاة الوالي، فهو يعلم حق اليقين أن
الله لن يضيعه، وإن كان الموت في
انتظاره فهذا هو قدر الله فيه.

تغيب الإمام الأوزاعي عن الوالي
ثلاثة أيام، اعتزلاً وكبرياء، قضى تلك
الأيام يزداد من عبادة الله تعالى
وطاعته، وعندما جاء الموعد الذي
قرره الأوزاعي للذهاب إلى الوالي،
اغتنسل وتغطّر بالحنوط، وتكفّن
استعداداً لملاقاة الله تعالى، ثم سلك
طريقه إلى القصر.

رجل يسير بكفنه ورائحة الحنوط
تفوح من بين جنبهيه، الناس يعرفونه،
ويعرفون شأنه ويدعون الله تعالى أن
يحفظ لهم عالمهم.

كان الإمام الأوزاعي يسير بخطى
ثابتة، غير خائف ولا وجل، تدور في
رأسه فكرة واحدة، فكرة لقاء الله
تعالى ثم قال:

«الذي خلق الموت والحياة
ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» لم يكن
منتبهاً لما حوله، كان منشغلاً بذكر
الله تعالى ودعائه، لا يريد أن يضيع
لحظة واحدة في غفلة.

بدت مشارف القصر، وازداد قلبه
خفقاناً لقربه من لقاء الله، وصل إلى
القصر، عرفه الجميع وأذنوا له
بالدخول، ولم تلهه بهارج القصر
الفخم عن ذكر الله تعالى، حتى وصل
إلى مجلس الوالي، دخل عليه، سار
بهدهوء وسكينة، كان هناك عدد من
رجال الوالي، ومجموعة من السيفيين
معهم السيوف مصلّاة، نظر إلى الوالي
على عرشه وعظمة الملك تكسوه

سحنة الكبر والتعاضل، وفي يده
خيزرانة ينكت بها على الأرض، سلم
عليه الإمام الأوزاعي فلم يرد، فقال
الوالي:

أنت الأوزاعي؟.. قال:

يقولون.. فردّد الوالي:

أنت الأوزاعي؟.. فقال:

يقولون.. فقال الوالي بحق:

أنت الأوزاعي؟.. فقال:

قلت: يقولون.

أطال الوالي النظر إليه، ثم قال:

يا أوزاعي.. ما ترى فيما صنعناه
من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد
وبالبلاد أجهاد ورباط هو؟

فقال الإمام الأوزاعي:

أيها الأمير.. سمعت يحيى بن
سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد
ابن إبراهيم التيمي يقول: سمعت
علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر
ابن الخطاب يقول: سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما
الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما
نوى، فمن كانت هجرته إلى الله
ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،
ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو
امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر
إليه».

احمرّ وجه الوالي، وازداد غضبه،
وأخذ ينكت بالخيزرانة على الأرض
بشدة. ومن حوله من السيافيين
يقبضون على سيوفهم انتظاراً لأمر
الوالي بقطع رأس الإمام الأوزاعي، أما
الإمام الأوزاعي فقد كان ثابتاً، صارماً،
لم يهتز أو يضطرب، ثم قال الوالي:

يا أوزاعي.. ما تقول في دماء بني
أمية؟

فردّد الأوزاعي وقد ازداد ثباتاً
واستقراراً:

قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا
بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب
الزاني، والتارك لدينه، المفارق
للجماعة».

فجاش غيظ الوالي، ونكت على الأرض أشد من ذي قبل، ولملم بعض حاشية الخليفة أطراف مآزرهم؛ لكيلا يصيبها دم الإمام الأوزاعي، وما زال الإمام الأوزاعي صامداً شامخاً كالطود، لم تهزّه زمجرات الوالي، وكان قد رفع ذؤابة عمامته من على رقبته، حتى إذا جاء السيّف لا يتلكأ عندها، قال الوالي:

ما تقول في أموالهم؟

فقال:

إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت حلالاً فلا تحلّ لك إلا بطريق شرعي.

غضب الوالي، وانتفخت أوداجه والشرر يتطاير من عينيه، وأخذ ينكت بشدة أكثر، والقلوب تخفق منتظرة إشارة الوالي بقطع رأس الإمام الأوزاعي.

ثم قال الوالي:

ألا نوليكَ القضاء؟

فقال الإمام الأوزاعي:

إن أسلافك لم يكونوا يشقّون علي في ذلك، إني أحب ما ابتدؤوني به من الإحسان.

فقال الوالي:

كأنك تحب الانصراف؟

فقال الإمام الأوزاعي:

إن ورائي حرماً، وهنّ يحتجن القيام عليهنّ وسترهنّ وقلوبهنّ مشغولة بسبب.

فسكت الأوزاعي، وسكت الوالي، كان الإمام الأوزاعي ينتظر أن يسقط رأسه بين يديه، لكنه مازال مستمراً بذكر الله تعالى. كان الجو مشحوناً بالترقب والتوجّس، عندها جاء ردّ الوالي المفاجئ:

يا أوزاعي.. انصرف.

لم يصدق الإمام الأوزاعي أذنيه، لكنه استدار منصرفاً، وهو يتوقّع أن يأتي السيّف بغتة على رقبته، وسار يشقّ دربه بين القوم، ولا إله إلا الله مسموعة منه، حتى خرج من عند

الوالي بسلام!!

هكذا أفلت من بين يديّ عبدالله بن علي ذلك الذي لم يفلت منه أحد قط. سار الإمام الأوزاعي وهو يحمد الله تعالى، نعم.. لقد حفظ الله تعالى في نفسه فحفظه الله من غيره. التقى به أحد العامة في الطريق، فسأله:

يا إمام.. ماذا كنت تظنّ عند دخولك إلى الوالي؟

فقال:

والله ما إن رأيت الوالي جالساً على كرسيه إلا وتذكرت الرحمن جلّ في علاه وهو مستو على عرشه يوم القيامة، فلم أخف ولم أوجل.

وواصل الإمام الأوزاعي طريقه وهو يردد:

«ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب».



مع شعر الففهاء:

حافظ الحكمي

بين النظم والشعر

العلوم، وفي طرق أبواب الشعر المختلفة،
حيث كان يجري على لسانه دون تكلف.
وقد تلازم الحديث عن الشيخ، مع التعرّيج
على التلميذ؛ لأن التلميذ في فترة زمنية
قصيرة، شارك الأستاذ المهمة، فكان متعلماً
ومعلماً.

وقد تحدث أبناء المنطقة ممن
تتلمذ على الاثنين عن هذا
كثيراً، وسوف نشير إلى
جوانب البروز لكل
منهما ودوره في البعث
العلمي للمنطقة... إلا
أن الحديث عن حافظ،
يقترن أكثر بالحديث
عن شعره، وقدرته
على النظم العلمي.
فمن هو حافظ؟
وما مكانته
الشعرية؟

■ عندما يغرس الإنسان شجرة، فإنه
يبذل جهداً ويتابع العمل ليرى أثر هذا الغرس،
ثم يتلذذ بحصيلة ثماره.
والشيخ عبدالله القرعاوي، الذي سافر إلى
منطقة جازان وما حولها عام ١٣٥٨هـ: داعية
ومعلماً، كان من ثمار غرسه رجال حملوا
العلم بعد تعطش، وعرفوا فضله بعد
أن بان النفع على من أخذه،
وكان الشيخ حافظ الحكمي،
من أينع الثمار لغرس شيخ
القرعاوي.

فقد أعجب الشيخ
بالتلميذ قبل أن يراه،
لما وهبه الله له من
ذكاء مفرط، ثم زاد
الإعجاب بعدما برز
أمام شيخه في
علوم شرعية شتى،
مع قصر مدة
الطلب، ثم بما
وهبه الله له
من قدرة
شعرية في نظم



■ مصادر سيرته،

من منحه الله علماً وفهماً، وأجهد نفسه في أداء حق هذا العلم، فإن الله يجعل له قبولاً عند الناس، واهتماماً بتتبع سيرته، وتلاميذ العالم هم الذين يصلون ما انقطع من حياته بعد موته، ويعترفون بمكانته، والحرص في التعريف بسيرته: لأن للعلماء دوراً يجب أن يقدر، وأدباً يجب أن يؤدي، فأول من اهتم بالحديث عن علم حافظ وشعره:

١ - ابنه أحمد الذي بدأ الكتابة عنه منذ كان طالباً، إذ كتب عن أبيه في مجلة العرب عام ١٢٩٢هـ، وفي الإمامة عام ١٢٩٣هـ، ثم في كتاب والده «معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد» المطبوع عام ١٤٠٤هـ.

٢ - ثم ما جاء لدى الشيخ زيد بن محمد مدخلي في كتابه «الأفنان الندية شرح السبل السوية» من تعريف بصاحب المنظومة في الجزء الأول.. وهو حافظ حكيم.

٣ - وفي عام ١٤١٣هـ أصدر كتاباً عن حافظ حكيم، قرن فيه المكانة العلمية بالمكانة الأدبية، وأصله كان محاضرة في نادي جازان الأدبي.

٤ - والشيخ علي بن قاسم الفيافي في كتابه «السمط الحاوي في حديثه عن الشيخ القرعاوي ومدارسه» ربط ذلك بحديث عن الشيخ حافظ وسيرته الذاتية، مع بعض أشعاره.

٥ - أما الثلاثة: موسى السهلي، وعمر جردى، وأحمد علوش مدخلي، فقد أضفوا على الشيخ حافظ مكانة علمية مقترنة بأعمال شيخه عبدالله القرعاوي.

فكان كل من يتحدث عن حافظ حكيم وشيخه مديناً لهذه المصادر، حيث لفت النظر ما فتح الله للشيخ حافظ من ذكاء فطري، وقدرة على الاستيعاب والحفظ، وكان أول من أعجب به شيخه عبدالله القرعاوي الذي منحه جهده، وأولاه عناية خاصة، فكان عضده في التدريس ومراجعة التلاميذ.

■ مولده ونشأته،

اتفقت المصادر على أن حافظاً ولد في ٢٤ رمضان من عام ١٢٤٢هـ، الموافق لعام ١٩٢٤م، في قرية السلام التابعة لمدينة المضيا، وتقع في الجنوب الشرقي لمدينة جازان، والحكمي نسبة إلى الحكم بن سعد العشيرة، بطن من مذحج من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

انتقل مع والده إلى قرية الجاضع التابعة لمدينة سامطة، وهو لا يزال صغيراً؛ لأن أكثر مصالحي والده من أرض زراعية، ومواش كانت هناك (١).

حفظ القرآن الكريم مبكراً، واستمر في رعي غنم أهله، حتى قدم من بلاد نجد الإمام المجدد العالم الشيخ عبدالله



بقلم: د. محمد

ابن سعد الشويعر

القرعاوي، الذي اختار نشر العلم طريقاً إلى الله، وانتهج الحكمة في دعوته، وفي عام ١٣٥٩هـ شاء الله أن يلتقي هذا الداعية بالشيخ حافظ، فتعرف عليه وعجب من ذكائه وحرصه، وفرح حافظ بما عرضه عليه الشيخ القرعاوي لرغبته في العلم، إلا أن هذا العرض كان مشروطاً بموافقة والديه، ولكنهما لم يسمحا له بالذهاب إلى سامطة، كما هو طلب الشيخ القرعاوي، فظل يتعهده بالدروس والتوجيه حتى حل عام ١٣٦٠هـ، حيث توفيت أمه، ثم توفي أبوه فلزم شيخه ملازمة مستمرة (٢).

وشاعر الجنوب - محمد بن علي السنوسي - رحمه الله قال عنه: ولد عام ١٢٤٣هـ في قرية من قرى بني شبيل، تدعى الجاضع، وكان أبواه فقيرين أميين، فشب كما يشب أبناء البادية، بين مراض الغنم، ومعاطن الإبل، ومنابت العشب بعيداً كل البعد عن البيئات العلمية في أبسط مظاهرها (٣).

وسمعت من بعض المعاصرين له: أن حافظاً كان مشغولاً بالعلم، حيث يستعير الكتب، ويحفظ ما يستطيعه، ويكتب ما يتيسر له، ثم يعيدها إلى أصحابها، وكان أخوه الأكبر منه سناً، يهين له ذلك ويعينه عليه، كما كان يتعلم الخط بالمحاكاة والتقليد، حتى كان خطه من أحسن الخطوط، حيث أعجب به الشيخ القرعاوي عندما رأى خطه في بيتين من الشعر كتبهما إليه، هما:

إن الذي رقم الكتاب بكفّه

يُقرى السلام على الذي يقراه

وعلى الذي يقراه ألف تحية

مقرونة بالمسك حين يراه

وهذه أول أبيات بانث للمتابعين سيرته من شعره.

■ ميزته العلمية:

قلب الشيخ حافظ معايير التربويين ومقاييسهم التي رسموها للمدارس النظامية، بل إنه سبق إلى مفهوم ما يجب اتخاذه لغير الأسوياء في المنهج والزمن، ويقصدون بغير الأسوياء، المتخلفين عقلياً في سلم الهبوط، والأذكياء المتفوقين في سلم العلو، فإنه برز بروزاً فائقاً خلال عشر سنوات، ونبغ في المعارف التي أخذها عن شيخه، بل زاد عليها بما ناله من علوم ومعارف، نتيجة الرغبة الملحة وسعة الاطلاع مع نهم شديد بالقراءة، واستيعاب لما يقع عليه نظره.

ففي بداية التقاء الشيخ القرعاوي بتلميذه حافظ عام ١٣٥٩هـ في قرية الجاضع، طلب الشيخ من والدي حافظ أن يرسلاه معه إلى سامطة، ليطلب العلم، على أن يجعل لهما من يرعى غنمهما بدلاً منه، لكنهما رفضا هذا الطلب، وفي عام ١٣٦٠هـ توفيت أمه فسمح له أبوه وأخيه محمد، بأن يذهبا إلى الشيخ القرعاوي في سامطة، لمدة يومين أو ثلاثة في الأسبوع، ثم يعودا إليه، فكان حافظ إذا ذهب إلى الشيخ يملئ عليه الدرس، ثم يعود إلى قريته، فيفهم ويعي كل ما يقرأ، أو يسمع من معلومات.

وفي نهاية السنة وبعد الحج مات والده، فتفرغ حافظ للدراسة والتحصيل، وذهب إلى شيخه ولازمه ملازمة دائمة. فبرز ونبغ في دراسته على شيخه الذي فتح له مكتبته لينهل منها، وأجاد قول الشعر والنثر معاً، وكتب مؤلفات عديدة في كثير من العلوم والفنون الإسلامية، وقد وصفه شيخه بقوله: «لم يكن له نظير في التحصيل والتأليف، والتعليم والإدارة في وقت قصير» (٤).

وقد كان له من اسمه نصيب بجودة الحفظ وسرعته، حيث قال شيخه القرعاوي: «لقد كنت أعلم حافظاً وإخوانه، وألقي عليهم الدرس جميعاً، فكان حافظ يحفظ الدرس من مرة واحدة، وأما إخوانه فكنت أكرر عليهم المرة الثانية والثالثة، فكنت إذا أردت أن أكرر الدرس عليهم، يقول: يكفيني يا شيخ مرة واحدة، ثم يأتيني من غد، وقد حفظ درس الأمس، ما يخرم حرفاً، ولا يتلجلج في لفظ، حتى شعر إخوانه بالخجل منه، فعادوا يقولون: لا تكرر علينا الدرس، يكفي إذا سمعه حافظ أن يعلمنا هو» (٥).

■ آثاره العلمية:

لقد رزق الله حافظاً نباهة وبراعة في قول الشعر: نظماً وارتجالاً، حيث قيل: إنه لا تعوزه المطولات، وإن باستطاعته أن ينظم أكثر من أربعمائة بيت في ليلة واحدة: لسهولة جريان الشعر على لسانه..

وفي عام ١٣٦٢هـ، وهي السنة الثالثة من بداية دراسته على شيخه، أراد الشيخ أن يختبر تلميذه، فأشار عليه بإنشاء منظومة في التوحيد، مستمدة من قراءته في كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، فنظم «سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد» حيث انتهى من التسويد في العام نفسه ١٣٦٢هـ، وهي أرجوزة في أصول الدين بدأها بقوله:

أبدأ باسم الله مستعيناً

راض به مدبراً معيناً

وهي باكورة إنتاجه العلمي، خرجت في ١٦ صفحة: طبعتها الأولى بمكة المكرمة، ثم توالى كتيبه التي بلغت قرابة العشرين، وسنشير هنا إلى ما كان متنه شعراً:

٢ - اللؤلؤ المكنون في أحوال الأسانيد والمتون، منظومة مطلعها:

الحمد لله كل الحمد للرحمن

ذي الفضل والنعمة والإحسان

انتهى من نظمها سنة ١٣٦٦هـ، وطبعت لأول مرة في مكة المكرمة في ١٨ صفحة، وهي نظم في فن المصطلح، وما اشتمل عليه من قواعد، وضوابط بالسند والمتن والجرح، ومراتب التعديل، وغير ذلك.

٣ - الجوهر الفريدة في تحقيق العقيدة، منظومة دالية مطلعها:

الحمد لله لا يحصى له عدد

ولا يحيط به الأقاليم والمدد

وهي في إيضاح عقيدة أهل السنة والجماعة، سلفاً وخلفاً، والرد على الضلالات من أهل البدع والعقائد الباطلة، خرجت طبعتها الأولى بمكة المكرمة عام ١٣٧٣هـ في ١٩ صفحة.

٤ - السبل السوية لفقه السنن المروية: منظومة طويلة في الفقه وأبوابه، تقع في ٢٣٥٩ بيتاً، وهي أطول مؤلفاته، مطلعها:

أبدأ باسم الله خالقي محمداً

محسباً مكتفياً محوقلاً

وقد خرجت في طبعتها الأولى متناً فقط في ١٣٤ صفحة مطبوعة في مكة، وقد انبرى فضيلة الشيخ زيد بن محمد مدخلي المدرس بمعهد سامطة العلمي لشرحها، وسماها: «الأفنان الندية شرح منظومة السبل السوية، لفقه السنن المروية» الطبعة الأولى عام ١٤٠٩هـ، والثانية: عام ١٤١٣هـ عن دار علماء السلف بالإسكندرية بمصر.

خرجت في ستة مجلدات في ٣٠٣٤ صفحة مع الفهارس، أطلق على المجلد الأخير: الجزء السادس والسابع، وقد بذل

الشعر: نظماً وارتجالاً

آلائه وهو أهل الحمد والنعم

١٠ - قصيدة في الترغيب والترهيب، والحث على تقديم الآجلة على العاجلة، والاستعداد للقاء الله، بمجاهدة النفس، شرحها وحقق نسبتها للشيخ حافظ أحد تلاميذه هو الشيخ زيد بن محمد المدخلي، وخرجت في طبعتين: الأولى: عن نادي حطّين بسامطة، والثانية: نشرتها دار علماء السلف بالإسكندرية عام ١٤١٤هـ باسم: القصيدة الهائية، وتقع في ٤٠ صفحة.

ويظهر أن الشيخ زيد شرحها لأول مرة في ١٣٩٣/٤هـ، حسبما دون في آخر صفحة بعد شرح آخر بيت، وجميع أبياتها ٣٨ بيتاً.

١١ - وذكر أن له قصيدة همزية لم تنشر بعد في تشجيع الإسلام وأهله، وهي منظومة تبلغ ٢١٤ بيتاً، ركز فيها على التمسك بالعروة الوثقى التي اتفقت عليها دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام» (٦).

١٢ - هذا بالإضافة إلى ما ذكر الشيخ علي بن قاسم الفيقي بأنه:
أ - قرّط ألفية العراقي التي عنيت بالحديث وكان منها قوله:

بشرح جامع فارتع رياضاً

ورد من عذبه الصافي حياضاً

ومن ثمراته فاقطع فنوناً

ومنه سائغاً فاشرب محاضاً

وهي منظومة طويلة.

ب - كما قرّط رد الشيخ عبدالرحمن السعدي في رده على القصيمي، صاحب الأغلال، الذي سمّاه تنزيه الدين وحملته ورجاله مما ذكره القصيمي في أغلاله بقصيدة طويلة أورد منها الشيخ قاسم الفيقي في كتابه السمط الحاروي ٦١ بيتاً ومطلعها:

الحمد لله لا بالخط معدودا

حسراً ولا بمدى الأزمان محدودا (٧)

■ أدبه،

شاع عند بعض النقاد أن الأدب هو: الأخذ من كل فن بطرف.. وعلى هذا فإن العالم يكون أدبياً، ولا يكون المتفرغ للأدب عالماً.

ولما كان للأدب شعبتان: الشعر والنثر، فإن الحكم على الشيخ حافظ من هذا المنطلق يبين أنه أديب، وإن لم يتفرغ

الشيخ زيد جهداً كبيراً في الشرح والتحقيق والإيضاح.

٥ - وسيلة الحصول إلى مهمات الأصول، وهي منظومة في أصول الفقه، فصل فيها التعريفات بأصول الأحكام التكليفية، والأحكام الوصفية، وأصول أدلة الأحكام التي هي الكتاب والسنة، مطلعها:

الحمد للعدل الحكيم الباري

المستعان الواحد القهار

وقد انتهى من كتابتها عام ١٣٧٣هـ، وتقع في ٦٤٠ بيتاً، كانت طبعتها الأولى بمكة المكرمة في ٣٥ صفحة.

٦ - متن لامية المنسوخ، منظومة في الناسخ والمنسوخ، دقيقة في التعبير، واضحة في التمثيل، كانت طبعتها الأولى في مكة المكرمة في ١٠ صفحات، مطلعها:

الحمد لله في الدارين متصل

هو السلام فلا نقص ولا علل

٧ - نيل السؤل من تاريخ الأمم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم: منظومة تاريخية تزيد أبياتها على ٩٥٠ بيتاً، مطلعها:

الحمد لله المهيمن الأحد

باري البرايا الواحد الفرد الصمد

ثم بدأها بذكر بدء الخلق، والحكمة من خلقهم، ثم بذكر إبراهيم الخليل عليه السلام، وغيره من الأنبياء، ثم عرج على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تاريخ وفاته عليه الصلاة والسلام.

٨ - نصيحة الإخوان، المشهورة بالتائية: وهي عن تعاطي القات والدخان والشّمة، وقد عنون لها بقوله: هذا سؤال بشأن القات والدخان والشّمة، وهي قصيدة مطلعها:

حمداً لمن أسبغ النعما وألهمنا

حمداً عليها بألطف خفيات

وقد أحدثت صدئ، وردود فعل، بين أنصار القات المدافعين عنه، وردوداً معاكسة ممن يمجّتها وخاصة القات. وقد خرجت الطبعة الأولى بمكة المكرمة عام ١٣٧٤هـ، في ١٥ صفحة، وقد طبع معها ردّ عليها لواحد من أهل اليمن، ثم جواب الشيخ حافظ عليه، وفي الجواب فوائد جلية، وكل ذلك بالشعر.

٩ - المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية، وهي منظومة عظيمة النفع، تحث على طلب العلم، وترغب فيه، وتدعو إلى الإخلاص فيه، والدعوة إليه، والتمسك بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، طبعت لأول مرة في مكة المكرمة في ١٤ صفحة، مطلعها:

الحمد لله رب العالمين على

للأدب. فهو شاعر وناثر. والأدباء العرب منذ عهد الجاهلية أخذوا هذا الفن من المواهب الفطرية التي حباهم الله إياها. وحافظ حكمي قد جمع الله له بين الموهبة، والسليقة العربية، مع نكاء وقوة حافظه.. وهذه المواهب وفقه الله إلى توجيهها توجيهاً شرعياً عندما التقى بالشيخ القرعاوي، وأخذ بيده نحو العلوم الشرعية، فوظف قدراته الأدبية في تبسيط العلوم الشرعية وتوضيحها.

وهذا المنهج قد اختطه المسلمون، منذ ملأت أنوار الإيمان قلوبهم، فسطعت لذلك قرائنهم الشعرية لينطلق العامل النفسي: إيماناً و يقيناً، مسيراً الغرض الأدبي: شعراً ونثراً. فاتجه بذلك الأدب إلى منهج جديد، يتلاءم مع مبادئ الإسلام، وما تدعو إليه تعاليمه وفق ما جاء في مصدري التشريع: كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم: فكراً ولفظاً ومعنى.

وبذا تغيرت المفاهيم، وجرت الأغراض التي انطلق منها الشعراء، وفق الدلالة الكريمة في آخر سورة الشعراء، من حيث استثناء المؤمنين.

ثم لما توسعت مدارس العلم، حرص القادرون على قول الشعر، على نظم بعض العلوم، لإدراكهم سهولة الحفظ شعراً، فاتجهوا إليه، كما حصل في نظم الألفيات في النحو وفي الفرائض والفقه، ثم في مصطلح الحديث والتوحيد.. وهكذا نشأ ما يسمى بالشعر التعليمي.

والنظم العلمي في سبكه وأسلوبه، يختلف عما يهتم به الشاعر في شعره لأي غرض من الأغراض، مما جعل النقاد وخصوصاً في العصر الحاضر يخرجون نظم العلوم عن دائرة الأدب، فقالوا: هؤلاء نظام، والشعر غير النظم، بحجة أن خيال الشاعر ومحسناته البديعية، والأغراض المعهودة لا تتأتى في النظم العلمي، لكن المؤكد أن من يستطيع النظم، فإن لديه قدرة شاعرية جيدة، وموهبة لا يستهان بها.

ولذا فإن الشيخ حافظاً بما وهبه الله له من ملكة شعرية، يعدُّ ناظماً وشاعراً، إلى جانب كونه ناثراً كما في رسائله وخطبه العديدة، وكتابات ووصاياه، إلا أنه سخر أدبه: شعراً ونثراً لغرض إسلامي، في تبسيط العلوم، والترغيب في طلب العلم، والترهيد في الدنيا، والتذكير بالآخرة، أو في المساجلة.. وما إلى ذلك..

وهو في أي غرض يطرقه، يجد القارئ نفسه منجذبة معه، إلى ما يعتمل في جوانحه: من منهج إسلامي التزم به، حيث يسير في درب لا يحيد عنه، بدءاً بحمد الله وختاماً بالصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعريجاً على الذكر والتسبيح، وتذكر الآخرة، وما فيها من سعادة أو شقاوة، في

الأعم الأغلب، ثم يتطرق إلى موضوعه الذي قصده.

وقد وصف ظاهرة الشيخ حافظ الشعرية تلميذه زيد مدخلي بقوله: وإن من جملة ما حبا الله الشيخ حافظاً، موهبة قرض الشعر، فاستغلها في تقييد العلوم الشرعية، والقصائد الدعوية، التي تعالج مشكلات المجتمع، بل مشكلات الأمم، بأسلوبه السهل الرصين، الذي يحمل في حروفه المعاني العظيمة، التي تتغذى منها الأرواح والقلوب، شعاره الصدق، والنصح والإخلاص، وإثارة السعي الحثيث في كل ما فيه نفع العباد والبلاد، وإذا كان الشعر المطبوع، ومنه المكتسب، فإن الشيخ حافظاً من أهل القسم الأول، فقد حفظت لنا وثائق التاريخ، أنه كان يقرض الشعر قبل أن يدخل المدرسة السلفية، وقبل أن يلتقي بشيخه عبدالله القرعاوي.

ثم استشهد بالبيتين السابقين، حيث إنهما أول ما نسب عنه في الشعر:

إن الذي رقم الكتاب بكفه... إلخ (٨).

ويحدد الدكتور أحمد حكمي الأغراض الشعرية التي طرقتها الشيخ حافظ فيقول: «لقد كان أكثر ما يقول الشعر، في غير ما كتبه من منظومات علمية: إما نصيحة، أو مساجلة لصديق، أو وصفاً أو خاطرة: إلا أنه لم يدون جُل ما قال، إن لم يكن كله، وما بأيدينا من الآن إلا النزر اليسير جداً، حفظه عنه بعض تلاميذه.

وقد ضرب نموذجاً بقصيدته الميمية التي نظمها في الوصايا والآداب العلمية، وهي طويلة اعتبرها من أهم قصائد شعره، إذ طرق فيها أغراضاً هي: وصف العلم، الترغيب في العلوم، ووصيته طلبه العلم بمساعدة غيرهم في تحصيله، والإخلاص في النية» (٩).

فالشيخ حافظ وإن كان قد اختط لنفسه أغراضاً تتمشى مع منهجه العلمي، والتزامه الديني، مثلما سار ابن القيم - رحمه الله - وأضرابه من علماء السلف عند المسلمين، فإنه قد ابتعد عن أغراض أخرى سائدة، لم يعرف عنه التطرق إليها مثل: الغزل، والهجاء، والمديح والثناء، وإن كانت له قصائد أثنى فيها على الملك عبدالعزيز، والملك سعود - يرحمهما الله. ولكنه بمدحه هذا، ينطلق من حماسته الدينية، حيث يرى لهما فضلاً بعد الله، في تجديد الدعوة والحرص على نشر العلم، وتطبيق شريعة الإسلام في كل أمر.

والشعراء المجيدون، إذا كانوا يهتمون بمطلع القصيدة، وبراعة الاستهلال، ويراعون حسن الاختتام، وفنية الانتقال من غرض لآخر، فإن الشيخ حافظاً، قد وسم قصائده ومنظوماته بمطلع شبه ثابت، وهو - حمد الله - والثناء عليه سبحانه، مهما كانت المناسبة، إذ إن نَفْسَ الشعر الطويل،

● قصائد في الترغيب والترهيب

والاستعداد للقاء الله بمجاهدة النفس

حمداً بلا حد ولا إحصاء

لله والي الحمد والنعماء

ثم الصلاة على النبي محمد

من جاءنا بالملة السمحاء

والآل والصحب الكرام وتابع

لهمو بنهج السنة الغراء

اعلم بأن الله جلّ جلاله

قد ماز من يشقى من السعداء (١١)

وتعدّ هذه القصيدة ملحمة تاريخية، سرد فيها حافظ التاريخ الإسلامي، حيث بدأ بالخلفاء الراشدين، ثم عصر شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم انتقل إلى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم الغزو التركي للجزيرة العربية، وما تبعه من فتن.

٣ - وعندما بعث الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في عام ١٢٦٤هـ لجنة ملكية برئاسة الشيخ: صالح بن عبد الحميد، نزلت من أبها على طريق درب بني شعبة، وزارت المدارس، حتى انتهى بها المطاف إلى سامطة، وقد أطلعت على بعض مؤلفات الشيخ حافظ، وأعجبت بها، وكان الشيخ القرعاوي قد أقام حفل تكريم، كان مما ألقى في هذا الحفل، قصيدة للشيخ حافظ، تبلغ ستة وتسعين بيتاً، كعادة شعره المليء بالمعاني الجزلة، والعبارات ذات الدلالة: تنوياً بالدعوة، وبجهد الشيخ عبدالله القرعاوي، وما يلقاه من عون ومساعدة من الملك عبدالعزيز - رحمه الله - فكان مطلعها:

لك الحمد يا من بالهداية أنعمنا

وللفضل أولى والمحامد ألهما

لك الحمد ياربي، كما أنت أمله

كثيراً دواماً يملأ الأرض والسما

على نعم قد أسبغت كل لحظة

فسبحانك اللهم مولى ومنعمنا (١٢)

وهي قصيدة أكثر فيها المحامد لله، ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرج على الخلفاء الراشدين ودورهم في الدفاع عن دين الله، ومنهم انتقل إلى عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد الدعوة، وما كان في البلاد قبله من شرك وبدع، وبدأ في توجيه النصيح للملك عبدالعزيز مقتبساً المعنى من الحديث الشريف، حين قال:

أعبد العزيز اسمع وصية ناصح

فإن علينا النصيح قرصاً محتماً

كما أنه فرض عليكم أتى بذا

وقدرته الفائقة على النظم، وتداعي المعاني عنده، كل هذا أعطاه قدرة على حسن التعرّيج على أغراضه، واحداً بعد الآخر، بأسلوب سلس، وعبارة سهلة. ومع هذا لا ينسى الالتزام بما أصبح سمة في شعره، حيث يظهر أمام المتابع لأشعاره، أنه يختم كل قصيدة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مع بدئها بحمد الله.

وإذا كانت الحكمة العربية تقول: يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فإننا لن نسير وراء شعر الشيخ حافظ حكيمي العلمي الغزير، حيث أشرنا إلى شيء من ذلك في مؤلفاته التي جاء أغلبها نظماً في فنون المعارف الدينية والعربية، ولن نحلل قصائده العديدة؛ لأن ذلك يستلزم مجالاً أوسع، حيث كل جانب يستوجب دراسته مستقلاً لإبراز مكانته وقدرته.

وإنما نورد هنا نماذج تبرز: براعة الاستهلال، وحسن المطلع، ومنهجه في الانتقال من غرض إلى آخر.

١ - فهو يقول في قصيدة في حفل عيد الأضحى عام ١٣٦٨هـ، الذي أقامه الأمير مساعد السديري، تبلغ واحداً وأربعين بيتاً، مطلعها:

مني التحية والسلام عليكم

وأخصّ صدر الجمع ثم أعمّم

الحمد لله الذي هو أمله

إذ كل أمر منه يخلو أجزم

واليكم في العلم نظم صفاته

والعلم أعلى ما يقال وينظم (١٠)

فقد حيا الجمع بأقصر عبارة، وخصص عليتهم، بلفظ موجز، وعبارة شاملة، لو أراد أن ينثر معنى هذا البيت ناثر، لاستغرق منه أسطراً عديدة.

ولم ينس خصوصية الالتزام بحمد الله، فخصص لذلك البيت الثاني، ثم في الثالث جاء حسن الانتقال للغرض الذي قصده، وهو الحث على العلم وتبيين صفاته.

فكان بارعاً في استهلاله القصيدة بما يتناسب مع المقام الذي يتلقّظه السامع، وملتزماً منهجاً ثابتاً بحمد الله، وبارعاً في حسن الانتقال لما يريد من غير إطالة أو إملال.

٢ - ولمساييرته الأحداث فإنه أنشأ في عام ١٣٦٨هـ قصيدة بمناسبة تقسيم فلسطين، ركّز فيها على وجوب الاعتصام بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإقامة الجهاد، ورفع علمه، لتكون كلمة الله هي العليا، وتبلغ مائة وتسعة وتسعين بيتاً، استعرض فيها تاريخ المسلمين الذين رفع الله بهم راية الإسلام، وقضوا على الشرك والبدع، في أنحاء من الأرض، وقد بدأ بقوله:

له من ثقات بأن قد ساء مقصوداً
إلى أن رجا التوبة فقال في ختامها:
والأبعد القاصي نرجو الله توبته
أن لا يموت على الإلحاد مكموداً
ثم الصلاة مع التسليم دائمة

على النبي المصطفى حياً ومفقوداً (١٤)
ثم جاء به عرضاً في قصيدة أخرى ذكر فيها ما يعانيه
علماء السنة في عصره من اعتراضات مدعي التقدم، فقال في
الجوهرة الفريدة، في قصيدة عنوانها: شكاية الحال إلى الكبير
المتعال. حيث ردّ على كثيرين من أهل البدع ضمن قصيدة
طويلة:

أو كالقصيمي في أغلال رده
أضحى لأصناف كل الشرّ يعتقد
يرى الطبيعة رباً خالصاً ولها
محض التصرف في أحوال من وجدوا
لها الرسول يناجي في نبوته
وفي الوفاة اشتاق يصطعدُ
وأن إيماننا بالله مشكلة

ظلت إلى الآن لم يحلل لها عقد (١٥)
وهكذا استمر يفند مزاعمه ثم يرد عليها: حجة واهية،
بحجة قاطعة، وهذه الجوهرة طبعته وهي في تسع عشرة
صفحة، تشتمل على مائتين وتسعة وتسعين بيتاً.
٦ - ولشغف الشيخ حافظ بالعلم، فإن المتتبع لآثاره
الأدبية: شعراً أو نثراً، يجده دائماً يحثّ على العلم أخذاً وأدباً،
وترغيباً وتوضيحاً لمكانته وآثاره، إذ نراه في ميميته يسهب
في الوصايا والآداب العلمية، حين يقول:

يا طالب العلم لا تبغي به بدلاً
فقد ظفرت وربّ اللوح والقلم
وقدّس العلم واعرف قدر حرمة
في القول والفعل والآداب فالتزم
واجهد بعزم قوي لا انتشاء له
لو يعلم المرء قدر العلم لم ينم
والنصح فابذله للطلاب محتسباً
في السرّ والجهر والأستاذ فاحترم
ومرحباً قل لمن يأتيك يطلبه
وفيهم احفظ وصايا المصطفى بهم
والنية اجعل لوجه الله خالصة

إن البناء بدون الأصل لم يقم (١٦)
٧ - وله مساجلات ومداعبات إخوانية، وردود وفوائد
علمية، لا يلتزم فيها المطلع المعتاد عنده، كما أنه لا يلتزم ذلك

حديث تميم عند مُسلم محكما
فأنتم لنا قلب، ونحن جوارح
فإن تصلحوا نصلح وبالعكس لازما
عليك بتقوى الله في الجهر والخفا
فمن يتقيه كان القريب المسلما

٤ - وعندما أصدر الملك عبدالعزيز في عام ١٣٦٨ هـ أمراً
بمنع القات من المملكة: إنباتاً وبيعاً وشراءً واستعمالاً، بادر
الشيخ حافظ بقول قصيدة في هذا، وقد أنشأها وهو راكب
على حماره في الطريق من بلدة السلامة إلى جازان، أبان فيها
عن رأيه في الدخان والقات والشمة.
تقع القصيدة في أربعة وأربعين بيتاً.. وهو وإن خالف
فيها - على إحدى الروايتين - المطلع بحمد الله والثناء عليه،
والصلاة والسلام على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه
قد اكتفى بذلك في مقدمته النثرية لهذه القصيدة، وقد قرن
الحديث بمناسبته، وهو شهر الصوم، ثم انتقل إلى موضوعه
قائلاً:

بإقبال شهر الصوم أشرف ميقات
أتى النبأ المرسوم بالمنع للقات
وقلّع جرائيم له من أصولها
وتهديد جالّاب له بالعقوبات
بأمر الإمام المصلح احتاط غيرهُ
وحجراً على أموال أهل الإضاعات
ونقّذه في الحال عماله كما
سيجزونه حسب الأوامر في الآتي
فسر بذا أهل المروءة والنهي
وأهل النفوس الزاكيات الأبيات (١٣)
أما الرواية الثانية فقد بدأها بمطلعه المعتاد في كل
قصائده عندما قال:

حمدا لمن أسبغ النعما وألهمنا
حمداً عليها بألطف خفيات

وهي قصيدة تزيد عن أربعة وأربعين بيتاً، وأحدثت ردوداً
من بعض علماء اليمن، ومقارعة بينه وبينهم كل ينتصر لرأيه
ويستشهد له، وقد غلبت حجة الشيخ حافظ.
٥ - كما سخر الشعر في الرد على المنحرفين عن الطريق
السوي، حيث ردّ على عبدالله القصيمي في كتابه: «الأغلال»
بقصيدة تبلغ واحداً وستين بيتاً، بدأها بكادته بالحمد لله، ثم
استمر في الدفاع عن السنة: والرد على القصيمي، فقال:

وللقصيمي رجس قد سمعت به
ذكراً ولم أره لأزال مفقوداً
لكن تواتر وصف المشرفين عليه

وقوة حافظه للشعر

العامّة في شعره:

١ - الالتزام في المطلع بحمد الله، ثم بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويختم أحياناً بذلك.. كما أنه يلزم إطاراً عاماً في شعره، وهو القالب الإسلامي، فكرياً ولفظاً ودعوةً، وصدقاً.

٢ - اقتصاره في أغراضه الشعرية على ما يتلاءم مع دين الإسلام، ويحث عليه: بعداً عن الكذب وتحاشياً عن الهجاء والغزل، فكان شعره مع ذلك عذباً بلفظه، جزلاً في عبارته، ثابتاً في إطاره الإسلامي، بالصدق والمنطق.

٣ - قدرته على براعة الاستهلال، وإعطاء كل موقف ما يلائمه مما يجذب السامع، ويثير كوامن نفسه، ليتفاعل مع الحدث الذي اتّجه إليه.

٤ - طول نفسه الشعري، فقصائده في الأعم الأغلب من المطولات، وقدرته العربية تعينه على هذا الميدان: لأن الشعر يجري على لسانه جريان الكلام.

٥ - قدرته على استيعاب المعاني العديدة بقصيدة واحدة يساعده على ذلك سلاسة العبارة، وحسن الانتقال من حدث إلى حدث بدون ملل ولا تكلف، وتمكنه من اللغة العربية، والعلوم الشرعية.

٦ - صدقه في القول، وتطبيق ذلك بالعمل.. حيث يلمس من نصائحه صدورها من قلب صادق، ولذا كانت نصائحه وتوجيهاته تعطي ثمارها في طلابه، كما قيل في المثل: ما صدر من القلب استقر في القلب، وما كان من اللسان لا يتجاوز الأذان، ولذا عرف له طلابه هذا الإخلاص: ثناءً مستمرًا، وذكرًا حسنًا، وعرفانًا بالفضل لأهله.

■ وفاته:

بعد أن أدى الشيخ حافظ مناسك الحج عام ١٣٧٧هـ أصيب بضربة شمس حادة، انتقل على أثرها في يوم السبت ١٨/١٢/١٣٧٧هـ إلى الدار الآخرة عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين، وقد صلّي عليه في المسجد الحرام، ودفن في مقبرة العدل، وكان لوفاته أثر عميق في نفس شيخه عبدالله القرعاوي، وفي نفس كل من يعرف هذا الرجل، في الجنوب أو في غيره (١٩).

وقد ظهر أثر ذلك جلياً في طلاب معهد سامطة، حيث فقدوا أباً حانياً، وأستاذاً قديراً، متواضعاً، وقد أخذ الشيخ القرعاوي منهم مجموعة إلى الرياض ومكة المكرمة، لتعزية المشايخ والعلماء في الشيخ حافظ، كما رثاه كثير من الشعراء العارفين لقدره، ومنهم الدكتور زاهر عواض الألمعي بقصيدة

النهج في كل ما يطرح من شعر، إذ قد يخرج عن هذه القاعدة، كما في القصيدة التي ألقاها في حفل افتتاح معهد سامطة العلمي، المقام على شرف الملك سعود - رحمه الله - يوم السبت ١٨/١/١٣٧٤هـ، وتبلغ واحداً وسبعين بيتاً، بدأها بهذا المطلع:

أهلاً ففي ظلك الممدود والرحب

ومرحباً من بني برّ بخير أب (١٧)

كفيت من تعب، عوفيت من نصب

وقيت من وصب وافيت في خصب

فهو يستغل كل مناسبة، لموهبته الشعرية حتى إنه لا يعجز في الجلسة الواحدة عن الإتيان بمائة بيت، وكان يعالج القضايا الاجتماعية مع النصيح، والوعظ، والزهد في المديح. وقد داعب حسن بن زيد عندما كان قاضياً بأبها، فبعد أن زاره حافظ رأى عنده مكتبة وافية، وارتجل سبعة أبيات بهذا الصدد، ومنها قوله:

ببيت الشيخ كُتِبَ قد شراها

وجمعها ولكن ما قراها

وطابت نفسه منها بسلوى

إذا فتح المكان بأن يراها

وينظر في قطائعها ويمضي

وهل تدري القطائع ما وراها

وختمها بهذا البيت الذي تتضح منه قاعدته الإسلامية في كل ما يقول:

نعم نرجو الإله يمناً لطفاً

وبمنحها الشفا مما اعترأها (١٨)

وإن أدب حافظ: شعراً بنوعيه: النظم العلمي للمعارف المختلفة والتقريض والردود، ونثراً، في رسالة وخطبة، ليجتاح إلى وقفات وتأملات متأنية، يسير فيها المحلل لهذا الأدب الجزل خطوات مع أفكار هذا العالم الأديب، ليسبر المؤثرات في نفسه، وليبرز للقارئ ما وراء السطور من أبعاد

عميقة، وعبارات

جزلة، ومحسنات

بديعية،

وتوجيهات قيمة،

هي منهج العلماء

المخلصين،

وصدق المفكرين

الصادقين، حيث

نجمل الظاهرة

عندما ترك الشاعر الغزل

والهجاء والمديح

إلى ما يناسب منهجه والنزاهة

الدينية

مطلعها:

لقد دوى على المخلاف صوت
نعي النحرير عالمها الهماما
تفجعت الجنوب وساكنوها
على بدر بها يمحو الظلاما
وذاعت في الدنا صيحات خطب
فهزت من فجائعها الأناما
فكففت الدموع على فقيده
على الإسلام شمّر واستقاما
وأحيا في الربوع بيوت علم
وواسى مقعداً ورعى يتامى (٢٠)
كما رثاه أحد تلاميذه، الأستاذ إبراهيم الشعبي
بقصيدة تبلغ أربعة عشر بيتاً ختمها بقوله:
سلاح للمشاكل كنت قرماً
ومصباح البحوث بكل واد
وفي كل العلوم مددت باعاً
وهمتك العلية في ازدياد
بكتك منابر، وبكتك كتب
وطرف الخل أمسى في سهاد
بكاك العلم والعلماء طراً
وأرباب الحجى أهل الرشاد (٢١)

■ خاتمة:

لا أقول إنني وفيت الشيخ حافظاً حقه، ولا أحكم على
كل من كتب عنه بأنه أعطاه ما يستحق من التعريف
والتحليل، ولا لتراثه العلمي والأدبي، وآثاره الباقية بعده
من التمهيد والدراسة ما يجب أن يؤقّى.
فحافظ بما تراءى لي من شخصيته وعلمه، علم لا
كأعلام، ونبع ثر للدراسة والمتابعة، فهو في شعره
يحتاج إلى وقفات، وفي أدبه لا بد من استجلاء مكانته،
أما علمه الشرعي بأنواعه المختلفة فهو: وعاء ملئ علماً،
وظرف ملئ ظرفاً. كما قال الجاحظ عن الكتاب، يقرأ
فيستوعب، ويسمع فيحفظ، يتكلم فيجيد، وعندما يتحمس
فإنه يبرز ما وعى في قوالب تعين الدارس، وتفتح الأبواب
المغلقة، أمام من صعبت عليه الأمور، فهو شاعر بفطرتة،
وعالم بمثابرتة.

■ الهوامش:

- (١) انظر: مقدمة معارج القبول بقلم ابنه أحمد، ص ٥.
(٢) الأفنان الندية، ١: ٥ - ٦.

● مساجلات

ومداعبات

إخوانية..

وردود..

ولكن!!



- (٣) محمد السنوسي شاعر الجنوب لمحمود شاكر، ص ١٠.
(٤) راجع مقدمة معارج القبول، ط ٣، ص.ف.
(٥) انظر: كتاب حافظ الحكمي، ص ٤٩-٥٠.
(٦) انظر: السمط الحاوي، ص ١٢١، وانظر: كتاب الشيخ حافظ
للشيخ زيد المدخلي، ص ٤٩.
(٧) انظر: السمط الحاوي، ص ١٠٦-١١٠.
(٨) انظر كتابه: حافظ الحكمي، ص ١٥.
(٩) مقدمة معارج القبول، ص ١، الطبعة ٣.
(١٠) انظر: القصيدة كاملة في كتاب الشيخ حافظ تأليف زيد
محمد مدخلي، ص ٥٤-٥٥.
(١١) انظر: المرجع السابق، ص ٥٦-٦٣.
(١٢) انظر: خبر اللجنة والقصيدة في كتاب السمط الحاوي
للشيخ علي بن قاسم الفيقي، ص ٥٠-٥٥.
(١٣) انظر: خبر القات ومنعه، والقصيدة كاملة في كتاب السمط
الحاوي للشيخ علي بن قاسم الفيقي، ص ٦١-٦٥.
(١٤) انظر: القصيدة كاملة في كتاب الشيخ حافظ تأليف زيد
محمد مدخلي، ص ٧٢-٧٤.
(١٥) انظر: القصيدة كاملة في كتاب الشيخ حافظ تأليف أحمد
ابن علي علوش، ص ١٤٦ - ١٥٠، ص ٤٥٦ - ٤٥٨.
(١٦) مقدمة سلم الوصول، ص ق.
(١٧) انظر: السمط الحاوي فقيه القصيدة كاملة، ص ١١٠-١١٣.
(١٨) انظر: السمط الحاوي، ص ١١٥-١١٦.
(١٩) انظر: السمط الحاوي، ص ١٢٢.
(٢٠) انظر: السمط الحاوي، ص ١٢٣، والقصيدة تبلغ ١٤ بيتاً.
(٢١) انظر: السمط الحاوي، ص ١٢٤.

عبدالله السيد شرف



«أحرف من عطر ونور»

نجارب واعية ومنجدة في الشكل والمضمون

بقلم / محمد يوسف التاجي

في ديوان لم تتعدَّ صفحاته ثمانين صفحة من القطع الصغير، جمع محمود شرف أربعاً وعشرين قصيدة لم يضمها ديوان من قبل من دواوين والده الشاعر الراحل عبدالله السيد شرف، من مواليد قرية (صناديد) التابعة لمحافظة الغربية بمصر سنة ١٩٤٤/١١/٦م، والتي جعل من داره فيها ندوة أدبية مفتوحة، ودواوينه هي:

- العروس الشاردة: ١٩٨٠م.
- الحرف التائه: ١٩٨٢م.
- القافلة: ١٩٨٤م.
- الانتظار والحرف المجهد: ١٩٨٦م.
- قراءة في صحيفة يومية: ١٩٨٧م.
- تأملات في وجه ملائكي: ١٩٨٧م.
- مملكتان: ١٩٩٤م.

ثم هذا الديوان الأخير الذي بين أيدينا، والصادر بغير عنوان اكتفاءً بنسبته إليه (ديوان عبدالله السيد شرف)، وقد صدر في ١٩٩٥/٦/١٩م بالعدد ١١١ في سلسلة (أصوات أدبية) عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، مع أن قصائده كما جاء في سطر بالمدخل (كتبت في الفترة من ١٩٧٨-١٩٨٩م) ويبدو أن صاحبها قد استبعد ما من قبل، فلم يدخلها في أي من دواوينه الصادرة على مدى هذه السنوات، ورأى ولده محمود - وهو شاعر أيضاً - أفرادها بديوان صدر بعد شهرين من رحيله في ١٩٩٥/٤/١٢.

الدائنية في قصيد شاعر [صناديد].

وقد نفحنا الشاعر الراحل عديداً من التجارب المتباينة في القصيد الشعري - سواء في الشكل أو في المضمون - بدأ ديوانه هذا بأولها التي تمثل ذلك النمط الجديد المركز الذي يمكن أن يُطلق عليه شكل (القَصيدة) أي القصيدة القصيرة جداً. ولعلنا نعرضها بكاملها من باب ضرب المثل فقط: يقول في قصيدة (عودة) ص ٩:

«كانك أنت التي من زمان
تمطيت فيها وعانقت كل الرؤى
شادياً احتوبها
كانك أنت الغرام القديم
وعشقي المدمى
لماذا تعودين
بعد ارتحال الفصول
عبيراً وحلماً»
وقد خُتم بها أيضاً الغلاف الخلفي

للديوان بخط هو في الغالب خط الشاعر نفسه، ولم يأت قريباً منها إلا في ثلاثة نصوص أخرى هي (خذني إليك ص ١٠)، و(معزوفة للمحاصر ص ١١)، و(أمنية ص ٣٠)، ولعله يحسن التعرض لواحدة أخرى منها على الأقل: ولتكن الأولى، يقول فيها:

«خذني من دمي

كل ما تشتهين

خذني من أعيني

أنجماً

خذني من أضلعي

سُلماً

سُلماً

خذني أحرفي

وردة

أو دماً

خذيني

خذني كل ما تشتهين

ولا تتركيني

أراجع وحدي

فلول المني

مرغماً»

وقد أثرنا البدء بهذين النصين لاشتراكهما في سمة واحدة - بعد سمة الشكل القصير المركز - هي الذاتية الواضحة، فعبداله شرف يبدو (طوبوايا) في المقام الأول، يتوق إلى استرجاع ما افتقده في هذا الزمان المادي الكثيب: العبير والحلم!! لكنه في النص الثاني يبدو - برغم جماله - أكثر استسلاماً للياس، بحيث يدعو ملهمته: لأن تعايشه فتأخذ منه ما تشاء: من العيون النجوم، ومن الضلوع ما يصلح ليكون سُلماً ترقى عليه، ومن أحرقه ما هو من الطبيعة كالوردة، أو ما هو من كيانه نفسه كالدم، على ألا تتركه وحده يواجه ما تبقى من أمانيه المهجرة وهو مُرغم مجبر!!

شرف، والعزف على مقام واحد،

فإذا انتقلنا لإضاءة مضامين ما

تيسر من باقي القصائد بالديوان، وجدناها تبدو كمعزوفات على مقام واحد، هو الاغتراب، واقتقاد سمات الزمن النبيل، والمعنيان لم تغلثهما أيضاً قصيدته السابقتان، وهي جميعاً وإن بدت عاكسة لجو واحد، فقد اختلفت كتجارب وتباين عطائها. فمنها ما جاء في شكل قصصي مستخدماً تقنيات الدراما، ومنها ما جاء في شكل حوار بينه وبين مخاطب، قد يكون إنساناً أو يكون معنى كالشعر مثلاً، ولنستمع إليه وهو يخاطب الشعر في قصيدته (للعصافير والشعر ص ٣٥، ٣٦)، فيقول له:

«كاذب أيها الشعر

ما عدت لسع السياط

وما عدت للعاشقين البساط

ولست بهذا الزمان الرباط

وما عدت...

قل لي إذن

- للعصافير أوجاعها -

سيدي الشعر قل لي:

لماذا الكذب؟!»

أو كالحب، كما جاء في قصيدته (مواجهة ص ١٤-١٦) التي تصور فرار الحب من عالم يمور بالأحقاد والأنانية المقيتة:

«لماذا... سال من يدنا

ملولاً

لم يعاتبنا

ولا استأني

ولا ودّع؟!»

لماذا عاف لقيانا

وغادرنا

ولم يسمع؟!»

إلى آخر ما ساقه من صور، عاكساً كيف كان الحب موجوداً، لما كان الناس أكثر تلاحماً، وأكثر نقاءً وصدقاً، ولما كانت الأنانية ذائبة في حرارة الاجتماع ودفاء التلاقي والتواصل، فلما غابت هذه المعاني.. توارى وما ودّع:

«لأننا..

لأننا قد تركناه

وعانقنا مريانا

وأشبعناه نُكراناً

وإهملاً

ونسياناً!!!

وسرنا تحت مسمعه

أكاذيباً

وتضليلاً

ملولاً

سال من يدنا

ولا استأني.. ولا ودّع»

أما بالنسبة لقصائده التي وظف فيها الدراما، وهي أكثر من واحدة، فلعلنا نلتقط واحدة فقط من أحسنها هي (بساطة ص ٥٥)، وفيها يقول مديراً أداة تصويره الشعرية:

«وكان إن يمر من خصاص

جره الشعاع

يهب ضاحكاً مستبشراً

يشيل فأسه

وليس غير زنده بضاعة

وثوبه الوحيد خرقة مشعثة

يجوع مرة

ومرة يلوك في نهم

الملح.. والخشاش

ودائماً

يسائل الإله أن يُديم نعمته

وعاشقاً للطير - كان -

والحياة

يُضاحك الرجال

والنساء.. والصغار

والشجر

ويبعث الغناء للقمر

وقيل عنه:

بائس فقير

وقيل:

بل أمير

كل الحياة ملكه

برغم أنه بلا ولد

ولا عقار

أو حقول تمتطيه

أو سند

● انفتحت تجاربه على الحركة الشعرية خارج الوطن.. فأعطته بعداً إنسانياً

بل كان إبطه - كما يقال -
والنجوم
وذات يوم
آثر الرحيل دونما وداع
وقيل كان وقتها ينام
مهدد التراب
والوسادة الذراع
وحين شيعوه
شيعوا
بساطة الحياة!!»

ولعلك تدهش معي لجمال هذه القصيدة / القصة الرائعة، في حسنها الإنساني النبيل، وتدقق لغتها الشعرية المرهفة والمصورة، وتوظيفها الناجح لأدوات الدراما، ولواقعيته النابضة بالحياة، والتي تكاد نلمسها في مجتمعا كل يوم.

فهذا الإنسان البسيط الكادح سعيد برغم صعوبة حياته وشدتها عليه، محب لها بمظاهرها جميعاً طبيعة وناساً... وكل ذلك لقوة إيمانه الذي يجعله دائم الشكر لربه على نعمائه، وإحساسه بالجمال في استقباله لكل معطياته - سبحانه - فيها وإن قل نصيبه منها.

فإذا فوجئوا يوماً بوفاته، شعروا بالحرز لفقد؛ لأنه بات يمثل نموذجاً نادراً للإنسان المفتقد في عصر حكمته المادة، وتخلي إنسانه أو كاد عن إلهه... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا أخفيك أنني قد شعرت عند لقطات وصفه لنموذجه البسيط، أنه إنما يصف نفسه، ولم يردني عن ذلك إلا حين ذكر عنه أنه كان (بلا ولد)، ولعله تنبه هنا إلى ضرورة أن يدخل من تقنيات الفن ما يفصل به بين ذاته وموضوعه. ولعله كان يطامن بين قلقه على أولاده لإحساسه بأنه سيفارقهم في وقت قريب - كما جاء في حوار مع أحمد التهامي قاسم في العدد

الخاص عنه من مجلة الثقافة الجديدة عدد مايو ١٩٩٥م - ويقبس من بساطته تسليمًا وسكينة هما في الواقع صفتا المؤمن المتوكل حين يلجأ لرفع همومه إلى ربه، وهو موقن بأنه لن يضيعه.

ومثل هذه القصيدة الشعرية الموفقة، ما جاء مصوراً لهذا الواقع القريب الذي ولى ظهره للصادقين من الناس والبسطاء، وأقبل بوجهه على لصوصهم وسماسرتهم ومخادعيهم. ولنقرأ معاً في لوحته التالية من قصيدته (اغتراب ص ٥٨-٥٩).

«ويمرق جنبني جاري القديم
بسيارة... طولها ألف عام
وكان بليداً يعاف الكتاب!!
ويعشيه ضوء الحروف
وعلم الحساب
ضحكاً يفر

يجالس أنثى.. كأن القمر
على الوجه نام
تلاّلاً في الصدر عقد ثمين
وزوجاً حمام
وكلب ينام
على الخاصرة

وقيل بأن الفتى
مارس السمسة

وبيع الكلام
وتاجر في الماء
والمال

والراقصات
وأضحى أمام الجميع
إمام الهداة»

حتى إذا ما بلغ بنا هذا الحد من
التصور المؤثر لنموذج الإنسان في

عصر صار كريبها بأفعاله الشائعة، وجدناه يستعين بحكمة القرون التي لا تختلف ولا شك - برغم الزمان - في تقييم الإنسان في حالتي تمرده وإيمانه... ووجدناه يقول:

«وحدث يوماً صديقي

(الفرزدق)

لماذا تدور الرحي بالغلام؟!

تنحنج

ألقي علي السلام

أفق يا غلام

فمن في يديه اختلال الدروب

وثقب الجيوب

تكن في يديه بهذا الزمان

عصا الصولجان!!!»

ولعله لم يفطنا الإشارة إلى أن شاعرنا الراحل وفق في توظيف التراث العربي الفصيح و«الفلوكلور» الشعبي، إلى جانب توفيقه في توظيف التقنيات الدرامية. ولنشر إلى ذلك في بعض المواضع مما تقدم ذكره في القصائد السابقة، فهو حين يصف بساطة الإنسان المؤمن، كما جاء في قصيدة (بساطة)، نراه يقول (كل الحياة ملكه) فلا يفوتنا توظيفه لمعنى ما جاء في الحديث الشريف (إذا بت معاقى في جسدك، آمناً في سربك، عندك قوت يومك، فقد حيزت لك الدنيا بحذايرها)، وفي رواية (فعلى الدنيا العفاء). وحين راح يسرد بعض صفاته رأيناه يستعير من «الفلوكلور» الشعبي معنى عبارة (باطه والنجوم) تعبيراً عن مدى إفلاسه وخوانه المادي، بما أوحى من خلال أسلوب المقابلة بأن الغنى الحقيقي هو غنى

النفس. وحين صورده في موته صورده بسيطاً كما كان في حياته، حتى بدا تشييع المشيعين له تشييعاً، لما افتقد بفقد مثله من بساطة الحياة التي غدت تنقل على بنيتها بتعقيدها وغموضها المحير!!

فإذا انتقلنا إلى النص التالي راعنا منه تصوير نموذج الانتهازي المحتكر المتاجر في كل ما يحرم: ماء ومال وراقصات، وهو في الغالب يوصف بأنه - كما هو معروف - (بتاع كلام). ذلك النموذج الذي صار شائعاً وصار الناس يتملقونه، بحيث يعدونه إمام الهداة، كدأب العوام الدهماء في تملق الأغنياء.

ووجدناه يستعين بصديقه (الفرزدق) الذي لم يفلت من هجائه حتى الزمان، فإذا به يقرده على إنكاره لواقعه المرفوض، ويقرر أن ما يراه إنما هو من سنن الكون في عصور الانهيار والضعف، فليس العادل هو من تدب له الدنيا، بل اللص المخادع والكاذب المخاذل، بما يعني توكيل الأمر إلى غير أهله، على ما جاء في الحديث الشريف (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة). وبما يشير أيضاً إلى أنه واحدة من علامات الساعة.

وليس عجيباً أن نجد شاعرنا الراحل مضيفاً بمثل ما تقدم من شعره المصور بصدق وشفافية عن الواقع المعاصر في أبرز مظاهره كالاغتراب والتفسيخ الاجتماعي اللذين ظهرا واضحين بمجرد افتقاد القيم الإنسانية النبيلة وضياعها من واقع المجتمع، والاستبدال بها قيماً أخرى مادية، تقيس الإنسان بمقياس ما يملك، ومقياس رصيده في البنوك، لا بمقياس ثرائه ونقاؤه الخلقي. الأمر الذي بدأت برصده القصيدة الحديثة منذ الخمسينيات وقبلها بقليل، ثم ظل الشعراء يضيفون إليها مجسدين ما جد فيها على الإنسان - وهو محك كل

تجربة فنية - حتى بدا شاعرنا - كما سبقت الإشارة - مضيفاً إلى رصيدها إضافات تحسب له؛ لأنها جمعت إلى جانب إشباعها المتابع لواقعية العصر عبر فترة زمنية قاربت نصف القرن، خاصية الإمتاع التي تعد من خصائص الفن القولي عموماً، شعراً كان أو غيره.

فإذا عرجنا على جانب آخر من توظيفه للتقنيات المختلفة التي قدمنا بعضها قبل قليل، ألفينا أنه يعد واحداً من أفضل الشعراء الذين انفتحوا على الشعر خارج موطنه العربي، فاستلهموا من حداثة ما نوهوا فيه بالمعاني الراقية والقيم النبيلة - وعلى رأسها الحب - فهذا هو ذا يستلهم نصاً للشاعر الإسلامي (رسول حمزاتوف) - ليت نصه كان بين أيدينا لنرى مدى إفادة شرف منه ومدى إضافته إليه - ولا نحسب شرفاً إلا عازفاً على واحدة من (تيمات) ونغمات حمزاتوف في العشق. كما يبدو لنا من أبياته التالية من قصيدته (مبتدأ.. وختام ص ٢١-٢٢):

إن كان بهذا العالم

ألف يهواك

أنا.. مبتدأ الألف

قلبي

عصفور

مسكون بالعشق

راك.. فرف

واستروح إنسان هواك

فشف

أو كانوا مئة

فأنا في بدء الصف

إلى أن يقول في ختامها:

يا فاتنة

تحتاج كياني

وتنام قلبي

حلماً وردياً

وخمائل قيد

إن لم يبق بهذا العالم

من يهواك

فهذا يعني

أني مت!!»

ولئن بدا في أبياته السابقة عاشقاً خالصاً على طريقة العشق الحار في قارة آسيا التي تتميز شعوبها بتدفق الحس ورهافة العاطفة، ولا يعلم مدى قوة عاطفتهم وتدفقها حتى يترجم عنها شاعر منهم كالخيام والشيرازي وغيرهما منبثقين عن بيئة قريبة من بيئة (رسول حمزاتوف) - وذلك هو أقرب آثار الاستلهم الشعري من لغة أخرى وبيئة مغايرة - أفنعب حين نرى شاعرنا قائداً على رأس (قافلة) للحب، ييثنا شروط الانضمام إلى قافلته في مثل السطور الرقيقة المتدفقة التالية:

«اخلع أحقادك واتبعني

تشهد قافلتني.. قافلة النور

تسير بلا ترتيب

تتهادى في حب لا يعرفه

الوصف

.....

تحمل أشواقاً صادقة

وسلاماً من نور

وزاداً لم ينضجه الجوع أو

الخوف

وباقات أمان

ومياها صافية... وحروفاً وارقة

الظل

عطوراً من قلب الأيام

وسيفاً يقطع الظلمة

يبتر من كل الأفتدة الحقد...!!»

ولعله كان يحس بروحه الشفافة أنه دنا من آخر الرحلة، وكدابه في رصد كل شيء ذاتي أو جماعي، في حياته خاصة أو واقعه بعامة، طلع علينا بالأسباب التالية في واحدة من أواخر قصائده فيما أزعج مما بدا لي من أول سطورها، وتاريخ وفاته في أبريل ١٩٩٥م بعد الخمسين بعدة شهور:

«الخمسون على الأبواب
تمد عراقيب الأوجاع
وتغتال شموعي

ومنها:

يا مولاي

تعددت الأسباب

وأنت الوهاب

أنت الحنان.. المنان

تجلى وجهك في الأنوار

وأبصرت ذنوبي

وتكشف وجهك في الظلمات

فعابنت دروبي»

إلى آخر هذه الأبيات / التسابيح

والمناجيات، التي كان لا ينتظر سواها

من شاعر لا يخفي إيمانه، ولنقرأ قول

أحد أصدقائه القريبين من كتاب

القصة حول هذه النقطة (١)

«وفي رمضان كان يشكو من

بعض الشعراء الشباب الذين

يزورونه في نهار رمضان، وهم

يدخنون ولا يستحون من طلب

الشاي أو القهوة في بيت بنيت

دعائمه على الإيمان، وصاحبه

يصوم مخالفاً كل تعاليم الأطباء...

وأراه يصلي بعينيه وشفتيه، وكم

كانت تجرحه قصائد بعض الشعراء

التي تتناول على المقدسات. وكان

ذلك جرحه الذي لا يندمل رغم

محاولات تطبيب خاطره».

وفي موضع آخر من رسائل

شرف إلى أصدقائه من الأدباء كتب

إلى جمعة كاشفاً عن هذا الجانب من

روحه المؤمنة - بغير قصد - عن

الإعلان عن نفسه طبعاً (٢).

«وهكذا.. يتسلل رمضان من بين

أصابعي، وكم أنا حزين لضياح

ثوابه من يدي.. ويعلم الله أنني

مكره على هذا».

■ أما بعد:

فها هي ذي لحظة الرحيل المرتقبة

تأتي، وهذا ما أفصحت عنه عبارة

صديقه الروائي السكندري محمد

● لجأ الشعراء إليه في الملمات..

وكان ملاذه: القصيدة!

الملمات شأن الفارس النبيل، حتى
ليقول قائلهم (٥):

«معذرة يا أخي إن كنت قد

سمحت لنفسك بإراحة رأسي على

صدرك، وأنا أعلم أن ما بك يكفي

وزيادة، تمنيت لو أنني أغمض عيني

على كل هذا الحب.. ثم أرحل»!

لكن الطائر المرثي وقد فك قيده،

يتخذ سبيله إلى مستقره الأخير، لا

أجد صورة تمثله إلا ما رسمه هو

بنفسه لنفسه كما قال:

«سار وحيداً

على سلم الضوء

في الأفق يكبر

- إذا كان يصغر -

في غفره تمتمات

وعطر

ونور

وفي الأفق نور

وعطر!!»

جبريل، «ولعل أصعب ما في حياة

عبدالله شرف أنه كان يتوقع

النهاية، وانتظر قدره، دون أن يسلم

نفسه لعوامل اليأس والإحباط..»

ولقد اجتمعت المراثي في رصد

رحيل هذا الشاعر الظاهرة، فهذا هو

صديقه الشاعر محمد فهمي سند

يقول (٣):

هل سئمت الفناء

فودعتنا وانسربت إلى الصمت

تغزل فيه الصفاء؟!

هل ذهبت تفتش عن حلمك

الوطني

الذي ظل يرتع في نبضات

الدماء؟!

أنت غافلتنا وانسحبت

لماذا تعاقبنا بانسحابك؟!!

يا نسمة الصبر في زمن اليأس

والأدعياء؟!

أكنت تودعنا يوم جئت

لتختار فرسان مجلسنا الأدبي؟!

وداعاً صديقي إلى أن يحين

اللقاء»

الهوامش:

(١) القصص جمعة محمد جمعة في مقاله

«عبدالله شرف أيامي معه» مجلة الثقافة

الجديدة، مايو ١٩٩٥م، ص ٤٣.

(٢) من مقالة (عبدالله شرف - صورة من

قريب)، المصدر السابق نفسه، ص ٢٧

و ٢٨.

(٣) قصيدة (عش الابليل) لمحمد فهمي سند،

ص ٥٧، مجلة الثقافة الجديدة، العدد

المذكور.

(٤) قصيدة (وداعاً عبدالله شرف) - د حسن

فتح الباب، ص ٦٧، مجلة الثقافة الجديدة،

العدد المذكور

(٥) محمد جبريل، في آخر سطر من مقاله

عنه.